

بين التاريخ والفلكلور

د. قاسم عبده قاسم

وموغلا في الأسطورية والرمزية . وكانت تلك بداية خيط العلاقة بين التاريخ والمأثورات الشعبية ؛ إذ ولد التاريخ من رحم الأسطورة وتربى في حجرها . وكانت التدوينات التاريخية الأولى حبل بالأساطير التي حاولت أن تفسر نشأة الكون وبدايات الإنسان . ولذلك لم يكن غريبا أن نجد لكل جماعة إنسانية أساطير تتحدث عن الأصول والبدائيات ، وتحاول أن تفسر للإنسان البدائي كل الأسئلة المحيرة المربكة التي طرحها الإنسان على نفسه .

فمنذ بدأ الإنسان على سطح كوكب الأرض راوده سؤال محير مريك ما يزال يلح في طلب الإجابة حتى الآن : من أين أتى هذا الوجود ، ولماذا ، وإلى أين ؟ . وعلى الرغم من أن الأساطير ، والفلسفة ، والدين ، والعلم حاولوا أن يجدوا الإجابة الشافية على هذا السؤال اللغز ؛ فإن السؤال ما يزال يؤرق الإنسان بشكل أو بآخر .

ومنذ البداية استخدم الإنسان عدة وسائل وأدوات لتساعده في البحث عن إجابة لهذا السؤال . وكان «التاريخ» باعتباره علما ، أحدهذه الوسائل والأدوات

التاريخ والمأثورات الشعبية ؛ من المجالات التي حاول الإنسان أن يعبر فيها عن ذاته . ففيهما صنبت تجربته في رحلته ، التي لم تتم بعد ، عبر الزمان . ومن خلالهما حاول أن يعرف ذاته . ومع ذلك ، فإن الدراسات التاريخية ظلت فترة طويلة تخاصم الموروثات الشعبية ، وتترفع عن الاستعانة بها . وبسبب غطرسة المؤرخين ، الذين تصوروا أن الوثيقة المكتوبة هي عماد البحث والدراسة التاريخية ، ظلت الموروثات الشعبية بكل أشكالها وأنماطها بمنأى عن الدراسات التاريخية زمتا طويلا .

وكان لابد للتاريخ ، باعتباره علما يلهث وراء الإنسان في محاولة لأن يفهمه وأن يفهمه حقيقة ذاته ، أن يمر بعدة مراحل «تاريخية» حتى يصل إلى الإيمان بضرورة الاستعانة بالفلكلور ؛ أى المأثورات الشعبية .

لقد كان التاريخ واحدا من وسائل الإنسان لمحاولة التعرف على ذاته ، وفهم لغز الوجود البشرى ؛ بدايته ومصيره ، وعلاقات الإنسان بالكائنات والظواهر في هذا الكون . وكان من الطبيعي أن يكون التاريخ في بداياته الأولى على شاكلة كافة معارف الإنسان الأولى ؛ ساذجا

التي يستخدمها الإنسان لفهم حقيقة الوجود الإنساني ؛ في ماضيه وحاضره ومستقبله . وهكذا ، تحددت منذ البداية قيمة المعرفة التاريخية بوظيفتها الثقافية / الاجتماعية . ومن ثم كانت ملازمة لوجود أية جماعة بشرية أيا كانت درجة نموها الحضارى . ولأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يدرك حقيقة الزمان ويعى أن هذا الزمان يحمل التغير والتبدل ، فقد حرص على أن يسجل حقائق حياته باستمرار . وليست النقوش البدائية التى اكتشفها العلماء فى الكهوف التى عاش فيها الإنسان البدائى سوى بدايات المحاولة الإنسانية لتخليد الذات . وليس من المتصور ، بطبيعة الحال ، أن الوظيفة الثقافية / الاجتماعية للمعرفة التاريخية كانت واضحة لدى الجماعات الإنسانية الباكورة بدرجة وضوحها الحالية ؛ بيد أن احساس الإنسانية بالحاجة إلى المعرفة التاريخية كان قائما وموجودا على الدوام . وقد قطعت المعرفة التاريخية رحلة طويلة منذ نشأت فى رحم الأسطورة حتى التطور العلمى المثير فى مجال الدراسات التاريخية فى العقود الأخيرة من القرن العشرين . وكان هدف هذه الرحلة معرفة الإنسان فى حياته الاجتماعية ، وثقافته التى تحمل عاداته وتقاليده ، سلوكياته وقيمه ومثله ، كما تحمل نتاجه الأدبى والفنى ..

ومن المثير حقا أن المعرفة التاريخية نشأت فى رحم الأسطورة (التى هى نمط من التصور الشعبى للكون والعلاقات والأشياء داخل هذا الكون من ناحية ، كما أنها تعبير شعبى عن رؤية الجماعة لذاتها وأصولها وتطورها التاريخى من ناحية ثانية) ثم عادت فى تطوراتها الأخيرة لتمتد وشائج الصلة بكل أنماط الموروث الشعبى

لقد حاول الإنسان منذ البداية التعرف على ماضيه ليساعده فى فهم حاضره ولكى يدعم وجوده الآن فى إطار الجماعة الإنسانية من ناحية أخرى . وإذا كان الإنسان قد لجأ إلى الأسطورة لتفسير اللغز المتعلق بوجوده فى الكون ولتفسير الظواهر المحيطة به ، فإنه فعل ذلك حين كان العقل البشرى مازال فى طور طفولته وحين كانت الأسطورة ملاذ الإنسان لتعويض النقص فى معارفه وذاكرته الجماعية . وقد ظهرت أساطير الخلق والأصول

لتحاول الإجابة على الأسئلة المتعلقة بخلق الكون وأصل الإنسان ، وعلاقته بالكائنات والظواهر الأخرى فى الكون ؛ أى أنها كانت المحاولة الأولى للحصول على إجابات يحتاجها الإنسان لتفسير وجوده وقصته فى العالم .

وإذا كان البعض يصف الأسطورة بأنها «العلم البدائى» ، فإنه ينبغى علينا أن نؤكد من جديد أن المعرفة التاريخية قد نشأت من ضلع الأسطورة . إذ أن أحداث القصص الأسطورية تدور حول أصول الأشياء . وهو ما يعنى أن بذرة التاريخ التى زرعت فى تربة الأسطورة أخذت تنمو تدريجيا ، وبشكل مطرد مع تزايد تحرر الكتابة التاريخية من الخيال والرمز الذى كان سمة أساسية فى «الكتابات التاريخية الأولى» .

لقد حاولت الأسطورة أن تفسر كل غوامض الكون للإنسان فى بداية رحلة الوجود الإنسانى ؛ بيد أن الأسطورة عجزت عن توضيح البعد الزمنى والبعد المكانى فى تجربة الإنسان التاريخية . ذلك أن الزمن فى الأسطورة متداخل دونما تحديد لما هو ماض ، وما هو حاضر ، وما هو مستقبل ؛ لأن بناء الأسطورة يقوم على أساس أن الزمن لم ينته بل مايزال مستمرا . ومن ثم فإن الفكرة الأسطورية عن الزمن كيفية ومجسمة . وليست كمية مجردة . ومعنى هذا أن الزمن فى الأسطورة حالة وجود ، وليس حسابا للأيام والشهور والسنين ؛ فالفكر الأسطورى لا يعرف الزمن باعتباره تعاقبا وتتابعا للحظات زمنية متشابهة . ولأن الإنسان الأول لم يعرف فكرة الزمن التى تشكل إطار التاريخ ، فإن الأسطورة كانت بمثابة الحل السعيد لمشكلاته المعرفية .

ومن ناحية أخرى ، فإن علاقة الأسطورة بالمكان هى نفسها علاقة البناء الفنى (فى أى عمل إبداعى سواء فى فنون القول أو فى فنون الشكل) برموزه . إذ أن المكان رمز من الرموز التى تحملها الأسطورة وليس حقيقيا لأحداث هذه الأسطورة ، لأن أحداثها تدور خارج حدود الزمان والمكان .

وبما أن العملية التاريخية ثلاثية الأبعاد ؛ لأنها تقوم على العلاقة الجدلية بين الإنسان وبيئته فى إطار الزمان ، فإن تطور المعرفة التاريخية كان يستوجب البحث داخل

هذه المنظومة الثلاثية بحيث انفصل «التاريخ» عن «الأسطورة» في مرحلة لاحقة .

وعلى أية حال ، كانت أساطير العالم القديم نتاجا لتأملات الانسان الكونية العميقة . فهناك الكثير من الأساطير القديمة التي عالجت موضوعات مثل نظام الكون وأصل الانسان ، وشكله ، والحق والعدل ، وبناء الحضارة ، ومن هنا يرى بعض الباحثين أن الأسطورة تعبير عن وعى الجماعة بذاتها وإدراكها لهويتها ، كما أنها تعكس بناء الحياة الاجتماعية ، وعلاقة هذه الحياة بعالم الآلهة والقوى الغيبية . فقد ربطت الأساطير الكنعانية ، مثلا ، بين ظروف البيئة من خصوبة أو جدد وبين صراع الاله (بعل) رب الخصوبة والحياة والاله (موت) رب العقم والموت . أما أساطير الخلق الهندية ، فتكشف عن رغبة الانسان الطبيعية في الوصول إلى التفسير للغز الوجود الانساني : كيف وجد الكون ؟ وكيف يعمل ؟ ومن أين أتى الانسان ؟ وما وظائف عناصر الطبيعة ، وعلاقتها ببعضها البعض ؟ وما سر القمر والشمس والرياح والعواصف والفيضان والجفاف ؟ وما إلى ذلك من تساؤلات .

ولذلك اختلطت محاولات الانسان الأولى لتسجيل تاريخه بالصياغات الأسطورية ، ولم يكن له أى دور واضح في الفعل التاريخي في هذه الصياغات الأسطورية ؛ إذ اتسم التراث الانساني الباكر في مجال الكتابة التاريخية بهذا الخلط المثير بين فعل الانسان ومشية القوى الغيبية . وكانت الكتابات التاريخية الأولى تسجل أحداثاً لا تدخل ضمن سياق الفعل الانساني ، وإنما كانت تتحدث عن أفعال الآلهة . وكانت تلك الكتابات تحمل سمة تبريرية تحاول أن تجعل الانسان راضيا عن تحكم الملوك الذين زعموا أنهم ضمن حكومات الآلهة . أو أنهم مندوبون عن الآلهة في التحكم بمصائر البشر . ولم يكن البشر في هذه الكتابات التاريخية الأولى يمثلون عنصر القوة والفعل ، ولكنهم كانوا وسيلة هذا «الفعل» وأدواته المسخرة بأيدي الآلهة . وهكذا كانت الكتابات «التاريخية» الأولى عبارة عن تواريخ حكومات الآلهة ، أو أشباه الآلهة . ولم يكن التاريخ قد نزل بعد من عليائه ليسجل قصة الانسان في الكون وسعيه لبناء الحضارة . وهنا نجد الأسطورة تحكم التاريخ ؛ لأن

الأسطورة كانت في ذلك الزمان حكاية مقدسة تلعب أدوارها الآلهة وأشباه الآلهة .

وكان طبيعيا أن تنزل الأسطورة أيضا من سماء الآلهة إلى أرض البشر ، وظلت رموزها وشروطها الفنية تحكم النظرة إلى الماضي الانساني . وقد اختلف الباحثون حول هذا الأمر ؛ فمنهم من يرى أن الأساطير «تسجيل تاريخي» للأحداث الجارية عبر ماضي الجماعات الانسانية والشعوب ، ومنهم من يذهب إلى القول بأن الأسطورة تمثل تاريخا قريبا تناقلته الأجيال بالتلقين الشفاهي

وفي رأينا أن الأسطورة لا تحمل التاريخ كله ، وإنما تحمل «نواة تاريخية» ، وفي الغالب تحمل هذه النواة التاريخية تراكمات تعبر عن وجدان الجماعة التي أنتجتها ، كما أنها تعبر عن الذات والهوية وتحمل تصورا نفسيا تعويظيا لصالح الجماعة أكثر منها تجسيد للواقع التاريخي . ولا يعنى هذا أن الأسطورة نتاج للخيال المجرد ، وإنما هي ترجمة لملاحظات واقعية ورصد لحوادث جارية في اطار فني يخدم الأهداف الثقافية الاجتماعية التي يتوق المجتمع لتحقيقها من خلال أساطيره . وعن طريق الأسطورة ومن خلالها ، عرفنا ما عرفناه من تجارب الأولين وخبراتهم المباشرة التي تعود إلى أزمان سحيقة تسبق «التاريخ المكتوب» . كان تطور المعرفة التاريخية موازيا لتطور البشرية ذاتها . وعندما انتقل الفكر الانساني من تبرير الخضوع للحكام باعتبارهم آلهة ، أو مندوبين عن الآلهة بدأت فكرة الملك الذى يملك ويحكم ؛ يملك البلاد ومواردها العامة ويحكم البشر ويتحكم في مصائرهم . وفي هذه المرحلة من مراحل تطور البشرية كان التاريخ مرادفا لسير الحكام ؛ ملوكا وأمراء وأباطرة ، يسجل كل حركة أو تصرف من تصرفاتهم ، ويعنى بتفاصيل حياتهم ، يسعى في ركابهم الى ميادين القتال ، وينصت إلى مفاوضاتهم ومحاوراتهم ويحكى عن حيلهم ودسائسهم . وكان طبيعيا آنذاك أن يكون التاريخ ريبب القصور ومن يسكنونها ، كما كان طبيعيا آنذاك أن يكون غالبية المؤرخين دعاة في خدمة الحكام وأن تكون كتاباتهم في الغالب الأعم دعاية وتبريرا لسلوك الملوك والأباطرة والسلاطين والأمراء .

تحمل رؤية الشعب لتاريخه ، وتفسيره لمسيرته الحضارية ، كما تشي بكل ما كان يحركه من قيم أو مثل عليا ، والنظام الأخلاقي الذي حكم حركته في الزمان والمكان . والموروثات الشعبية (بغض النظر عن بعض التعريفات الجاهزة المعلقة) تتضمن الأسطورة ، والسيرة الشعبية والحكايات ، والألغاز ، والأمثال ، والأغاني ، والنكات ... وغيرها مما يعبر به الناس عن أنفسهم بشكل تلقائي .

والفرق الجوهرى بين التسجيل الرسمى للتاريخ ، والتسجيل الشعبى ، هو أن التسجيل الرسمى قصد به أن يكون تاريخا ، أى أنه مقصود أن يصل للأجيال التالية على النحو الذى تمت به كتابته . أما التسجيل الشعبى ، فهو تسجيل شفاهى تراكمى تتناقله الأجيال ، وتزيد عليه وتعدل فى مضمونه بما يخدم أهداف الجماعة الانسانية ، دون أن يقصد به أن يكون تاريخا يقرأه الناس فى الأجيال التالية . ذلك أن الموروثات الشعبية تعبّر تلقائى عن الناس فى حياتهم اليومية ، وعن رأيهم فى أحداث تاريخهم ورؤيتهم له .

وإذا كنا نستطيع من خلال المصادر التاريخية التقليدية (الوثائق والآثار وكتب المؤرخين المعاصرين) أن نستعيد صورة الحدث التاريخى من زمة الماضى ، فإن هذه الصورة ستظل صورة باهتة لا حياة فيها ما لم نفهم أهل العصر الذى ندرسهم من خلال عاطفتهم ووجدانهم ، وقيمهم الأخلاقية ، ومثلهم العليا التى حركتهم آنذاك . والموروثات الشعبية مصدر هام للمؤرخ الذى يدرس التاريخ الاجتماعى ، أو النتاج الثقافى لأمة من الأمم .

كذلك ينبغى أن نلاحظ أن الظاهرة التاريخية ، سواء كانت اجتماعية أو غير ذلك ، لا تصلنا كاملة من خلال شهادات المؤرخين والوثائق والتسجيلات التاريخية الرسمية إذ أن المؤرخين وكتاب الوثائق لا يسجلون سوى جوانب جزئية من الظاهرة التاريخية يعتقدون أنها الجوانب الأكثر أهمية ولا يلاحظون الجوانب الأخرى التى تشكل ايقاع الحياة اليومية . هذه الجوانب المهمة من الظاهرة التاريخية (الجوانب الصامتة) هى التى تضمنتها الموروثات الشعبية .

والناظر فى تراث الكتابة التاريخية فى الفترة التى نعيشها يكتشف فى يسر وسهولة أن المدونات التاريخية والحوليات والسير ؛ كلها تدور فى فلك الملوك والحكام ، وأن الرعايا ، صنّاع التاريخ الحقيقيون ، غائبون عن صفحات تلك التسجيلات الرسمية . وهكذا ينسب عصر بعينه إلى عدة أفراد يقال أنهم صنعوا نهضة هذه الأمة أو تلك . وسنجد كتباً كثيرة فى تراث الأمم الانسانية على اختلافها ، كرسها من كتبوها لهذا الحاكم أو ذاك دون أن يلقوا بالا إلى الناس فى حياتهم الاجتماعية ونشاطهم اليومى باعتبارهم القوة التى تحرك تاريخ البشرية .

ولم يحدث سوى فى القرن التاسع عشر ، وفى أوروبا وحدها ، أن بدأ الاهتمام بدراسة التاريخ الاجتماعى والاقتصادى ؛ أى دراسة تاريخ الشعوب فى حياتها الاجتماعية والاقتصادية . وكان ذلك صدًى للتغيرات التى طرأت على الفكر السياسى والتى تبلورت فى الاتجاهات الديموقراطية والاشتراكية التى لم تلبث أن أنتشرت فى سائر أنحاء العالم . ومع الثورة الصامتة التى جرت على الدراسات التاريخية فى القرن العشرين ؛ زاد الاهتمام بدراسة كافة نواحي النشاط الانسانى عبر العصور وتعددت فروع الدراسات التاريخية بشكل مذهل . ومن أوروبا انتشر الفكر التاريخى الحديث بمذاهبه المتعددة إلى سائر أنحاء العالم ، وظهرت مدارس متعددة فى الفكر التاريخى تردد صداها من أقصى الارض إلى أدها . بيد أن نصيب العالم العربى من هذا التقدم العلمى فى مجال الدراسات التاريخية كان قليلا . وتلك قصة أخرى .

هكذا انتقل الفكر التاريخى فى رحلة طويلة من الأسطورة إلى التسجيل الرسمى ثم إلى المرحلة الأخيرة التى حققت فيها الدراسات التاريخية مكاسب باهرة . بيد أن الشعوب لم تكن لتسكت عن سرقة تاريخها الذى صنّعه ونسبته إلى حفنة من الحكام . وسجلت الشعوب رؤيتها لتاريخها فى فنونها الشعبية بأشكالها المختلفة . وحملت الموروثات الشعبية كل التفسيرات والرؤى والقيم والمثل ، والأمانى والتطلعات التى كانت تحرك الجماعات الإنسانية خلال رحلتها الطويلة عبر الزمان . ولسنا نقول أن الموروثات الشعبية تحمل كل الحقيقة التاريخية ، ولكن ما نقصده هو أن الموروثات الشعبية

ولأن الآثار والنتائج الناجمة عن أية ظاهرة تاريخية تتخذ شكل تيار اجتماعي / ثقافي غير مباشر ، ولكنه في الوقت نفسه تيار مستمر بشكل تلقائي بين الأجيال . سرعان ما يجد هذا التيار الاجتماعي / الثقافي لنفسه التعبير من خلال فنون الجماعة وآدابها التي درج الباحثون على تسميتها بالفنون والآداب الشعبية . وبعض هذه الفنون ينتسب إلى فنون الشكل ؛ مثل التصوير والرسم والزخرفة وصناعة الحلى والسجاد والملابس والأدوات المنزلية .. وما إلى ذلك ، وبعضها الآخر ينتسب إلى فنون القول . الفنون الشعبية القولية ، أو الأدب الشعبي غالبا ما يتخذ لنفسه قالب المأثورات الشعبية الشفاهية مثل ؛ السير وال نوادر والأمثال ، والقصص التاريخية الشعرية ذات الطابع الملحمي ، فضلا عن الزجل والألغاز والنكات والبلايق والمواويل ... وغيرها .

وما يزال الجدل دائرا حتى اليوم حول مدى جدارة هذه الموروثات الشعبية الشفاهية بأن تكون مصدرا للمؤرخ بسبب المشكلات المنهجية التي يثيرها استخدام مثل هذا المصدر في الدراسات التاريخية . ويرى البعض



أن أكتشاف «النص الأصلي القديم» الذي تفرعت عنه هذه المآثورات ضروري لكي نتبين مقدار الحقيقة التاريخية فيها بحيث يمكن تقييم أهميتها أو تقدير قيمتها . بيد أن أصحاب هذا الرأي يتغافلون عن حقيقة أن كل نص شعبي هو «نص أصلي» في حد ذاته من ناحية ، ويتصورون أن الموروثات الشفاهية الشعبية تقرير صادق عن الأحداث التاريخية من ناحية أخرى ، وهو أمر لا يمكن لمن يدرس التاريخ أن يعول عليه في دراسة مثل هذه الموروثات الشعبية الشفاهية .

فنحن نبحث في الموروثات الشعبية عن تفسير شعبي لحوادث التاريخ ، ولا نبحث عن الأحداث نفسها . نبحث عن «روح التاريخ» لا عن جسده . عن العلاقة بين الدراسة التاريخية ، والموروثات الشعبية . وذلك لالقاء الضوء على جوانب تلك العلاقة على أمل أن يكون ذلك مساهمة في تطوير مناهج البحث التاريخي ؛ لاسيما في مجال دراسات التاريخ الاجتماعي . ومن ناحية أخرى ، نحاول جذب انتباه الباحثين في مجال الدراسات الشعبية الى أهمية الاهتمام بالخلفية التاريخية للفنون التي يهتمون بدراستها ورصدها .